

المنهج السيميائي في قراءة المعالم الأثرية.

أ/ منصف دقاشي 

قسم العلوم الانسانية- جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي

مدخل:

إذا كان المنهج هو الأسلوب والطريق المؤدي لمعرفة الحقائق أو الغرض المطلوب، أو الوسيلة المؤدية إلى اكتشاف الحقائق و المعرفة العلمية، فإنّ أيّ منهج يحقق الغرض كفيل بأن يكون وسيلة الباحث العلمي في دراساته المختلفة.

وإذا كانت الدراسات الاجتماعية والانسانية في عمومها اعتمدت المنهج الاستردادي (التاريخي) في دراسة أحداث الماضي وتفسيرها وتحليلها للوصول إلى تحليل أوضاع الحاضر والتنبؤ بالمستقبل، في عملية نقدية خارجية (نقد الاستعادة ونقد المصدر) وباطنية (التفسير). فإنّ هذا المنهج ليس الوحيد القادر على الاجابة عن الأسئلة التي تطرح في هذه الدراسات.

ففي الدراسات الحديثة يظهر المنهج السيميائي كمنهج علمي استعمل في دراسات ومجالات عدّة؛ منها الدراسات المتعلقة بالتراث والثقافة. فقد أثبت هذا المنهج فاعليته في العديد من تلك الدراسات

قراءة المكتوب (مصنفات ومخطوطات) والمشاهد (معالم أثرية وملابس تقليدية وعادات اجتماعية...) دلت عليها الشواهد الحية إلى اليوم.

ومن اتجاهات السيمياء تلك المتعلقة بالثقافة؛ سيمياء الثقافة. يذهب أنصار هذا الاتجاه إلى أن العلامة لا تكتسب دلالتها إلا من خلال وضعها في إطار الثقافة، ولا ينظرون إلى العلامة المفردة بل يتكلمون عن أنظمة دالة أي مجموعات من العلامات ولا يؤمنون باستقلال النظام الواحد عن الأنظمة الأخرى بل يبحث عن العلاقات التي تربط بينها سواء داخل ثقافة واحدة أو العلاقات التي تربط بين تجليات الثقافة الواحدة عبر تطورها الزمني أو بين الثقافات المختلفة.

المعالم الأثرية من حيث هي جزء من الدراسات الأنثروبولوجية، هي علامات دالة على تاريخ أمم بنت حضارات وأرست ثقافات بقيت شاهدة عليها إلى اليوم. ومن تلك المعالم التي عنت بالدراسة تلك المتواجدة على أرض المغرب العربي التي مرّت بالعديد من التحولات وتعاقبت عليها دويلات تركت كلّ منها أثارا وعالم هي اليوم محلّ دراسة وبحث ونقد.

مساهمة في الإجابة على الإشكاليات التي يطرحها هذا الملتقى نطرح التساؤلات التالية: هل يستطيع المنهج السيميائي؛ كمنهج بحث علمي، المساهمة في إعادة قراءة للمعالم الأثرية وإثراء التقارير التي كتبت حولها؟ وهل تستفيد الدراسات التاريخية من المنهج السيميائي في قراءة أبحاثها من جديد؟ وقبل هذا ما المنهج السيميائي؟

هذه التساؤلات وغيرها هو ما سنحاول تقديمه في مداخلتنا الموسومة ب: **المنهجية السيميائية في قراءة المعالم الأثرية.**

بداية تدعونا المنهجية العلمية للإجابة عن تلك التساؤلات، تحديد مفاهيم ودلالات مصطلحات الحقل المعجمي الذي تنتمي إليه تلك الألفاظ؛ المنهج، السيميائية، المعالم الأثرية.

المنهج:

المنهج عند عبد الرحمن بدوي هو: «الطريق المؤدّي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم بواسطة طائفة من القواعد العامة التي تقيمن على سير العقل وتحديد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة»¹ أو أنه «الترتيب الصائب للعمليات العقلية التي نقوم بها بصدد الكشف عن الحقيقة والبرهنة عليها»² أو هو «طريقة يصل بها الانسان إلى الحقيقة، (...) لقد وجد الانسان في المنهج أنّه ييسّر عليه طريقة المعرفة، ويوفر له الجهد والعناء، وكلّما تقدّمت الحضارة وازدهرت، وكلّما كانت الحاجة إلى المنهج أشدّ»³. يقول الباحث المغربي جميل حمداوي أن «المنهج عبارة عن خطة واضحة المدخلات والمخرجات، وهو أيضا عبارة عن خطة واضحة الخطوات والمراقي تنطلق من البداية نحو النهاية. ويعني هذا أن المنهج ينطلق من مجموعة من الفرضيات والأهداف والغايات ويمر عبر سيرورة من الخطوات العملية والإجرائية قصد الوصول إلى نتائج ملموسة ومحددة بدقة مضبوطة»⁴.

وعند معنى العيد «المنهج ليس قالبا جاهزا في حرفيته، وتفصيله، المنهج مفهوم أو مجموعة مفاهيم يتطلّب مجرد تبنيها مقدرة شخصية وجهدا ثقافيا هائما، كما أنّ ممارسة

¹ عبد الرحمن بدوي: مناهج البحث العلمي، دط، دار النهضة العربية، القاهرة، 1963، ص5.

² محمد قاسم: المدخل إلى مناهج البحث العلمي، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، 1999، ص52.

³ شاكر عبد القادر: مناهج البحث اللغوي الحديث والمعاصر، مجلّة الخلدونية في العلوم الانسانية، 2005، ص105.

⁴ جميل حمداوي: النقد العربي ومناهجه، الأحد 7 جانفي 2007. <http://www.diwanalarab.com>

هذه المفاهيم، ليس مجرد تطبيق بل إعادة إنتاج لها، قابلة للتبلور والتميز، وخاضعة في تبلورها وتميزها لعلاقتها بالموقع الفكري الذي تمارس علاقتها بموضوعها وبالوضعية الثقافية والاجتماعية التي تشكّل حقل ممارستها¹.

وهذه الماهيات للمنهج تتقارب مع ما يطرحه أعلام الغرب، فهذا ديكرت يعرف المنهج على أنّه «قواعد وثيقة سهلة تمنع مراعاتها الدقيقة من أن يؤخذ الباطل على أنه حق، وتبلغ بالنفس إلى المعرفة الصحيحة بكلّ الأشياء التي تستطيع إدراكها، دون أن تضيع في جهود غير نافعة، بل وهي تزيد في ما للنفس من علم بالتدريج»². أمّا بور رويال هو «الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم بواسطة طائفة من القواعد العامة تهيمن على سير العقل وتحدد عملياته حتى تصل إلى نتيجة معلومة».

وفي هذا الموضوع يقول الناقد عباس الجراري: «إن قيمة المنهج ليست كامنة فقط في نوع الأدوات التي استعملها الباحث، سواء أكانت صالحة أو غير صالحة، بل مجرد أن البحث، أو أن موضوعة تقتضي نوعا ما من المناهج، ولكن قيمة أي منهج رهينة بما يحققه في نطاق رؤيته وهدفه... وأود أن ألفت النظر إلى قضية أساسية ألح عليها، وإن أغفلها الكثيرون ممن يأخذون ببعض المناهج، وهي أنه يجب أن نعترف بتعدد هذه المناهج، وبأننا قد نقبل بعضها وقد نرفض بعضها الآخر، ولكننا حين نفعل لا ينبغي أن نراعي منطلقاتها الفلسفية، وإنما علينا أن نراعي مدى صلاحيتها وطواغيتها لموضوع الدرس»³.

¹ يحيى العيد، في معرفة النص، ط4، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1983، ص124.

² ديكرت: مقال عن المنهج، تر: محمود محمد الحضيبي، ط2، دار الكتاب العرب، القاهرة، 1968، ص95.

³ عباس الجراري: خطاب المنهج، ط1، منشورات السفير، مكناس، 1990، ص71-73.

السيمياء:

«السيمائية أو السيمائية أو السيميولوجيا أو السيميوطيقا أو علم الإشارة أو علم العلامات أو علم الدلالة ... إلخ ترجمات وتعريفات تطول لعلم واحد بمصطلحين شائعين هما: (semiology) من (semion) اليونانية حسب العالم اللغوي فرديناند دي سوسير (1857 - 1913 م) أو (semiotics) حسب العالم والفيلسوف الأمريكي شارل ساندريس بيرس (ch . S . perice 1838 - 1914 م) و المصطلح الأول شاع عند الأوروبيين وعند سيميائيي مدرسة باريس تقديرا لصياغة سوسير، أما المصطلح الثاني (semiotics) فيفضله الناطقون بالإنجليزية كما يشيع في أوروبا الشرقية وإيطاليا والولايات المتحدة الأمريكية تقديرا للعالم الأمريكي بيرس»¹. وقد عرفها دي سوسير بقوله: «هي عبارة عن علم يدرس الإشارات، أو العلامات داخل الحياة الاجتماعية»².

¹ د/ بسام قطوس ، المدخل إلى منهج النقد المعاصر، دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر، ط1، 2006، م. ص186-187 .

² ترنس هوكر ، البنيوية و علم الإشارة تر: مجيد الماشطا، دار الشؤون الثقافية العامة بغداد، ط1 ، 1986، م، ص 113 .

وهناك شبه اتفاق بين العلماء ، يعطي مكانة مستقلة للغة ، يسمح بتعريف السيميائية على أنها «دراسة الأنماط، والأنساق العلامية غير اللسانية»¹. «إلا أن العلامة من أصلها قد تكون لسانية (لفظية) وغير لسانية (غير لفظية)»².

والسيميائية كمصطلح مبثوث في تراثنا من خلال ما جاء في بعض المعاجم: "السومة والسيماء والسيميائية: العلامة، وسوم الفرس: جعل عليه السيمة، وورد في القرآن الكريم في قوله عز وجل: ﴿حجارة مسومة عند ربك للمسرفين﴾³ وقوله: ﴿سماهم في وجوههم من اثر السجود﴾⁴.

حتى أنّ بيرس عدّ هذا العلم إطارا مرجعيا يشمل كل الدراسات. يقول وهو بصدد تحديد المجال السيميائي العام الذي يتبناه: «إنه لم يكن باستطاعتي يوما ما دراسة أي شيء - رياضيات كان أم أخلاقا أو ميتافيزيقا أو جاذبية أو ديناميكا حرارية أو بصريات أو كيمياء أو تشريحا مقارنا أو فلكا أو علم نفس أو علم صوت، أو اقتصاد أو تاريخ علوم .. دون أن تكون هذه الدراسة سيميائية»⁵.

¹ بيير جبرو ، علم الإشارة السيميولوجية ، تر: عن الفرنسية منذر عياشي ، دار طلاس للدراسات و الترجمة دار النشر دمشق ، ط1، 1988م، ص 23 .

² ينظر : حنون مبارك ، دروس في السيميائيات ، دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء المغرب ، ط1 ، 1987 م ، ص 29 .

³ سورة هود، الآية 83.

⁴ سورة الفتح، الآية 29.

⁵ Dictionnaire encyclopédique des : Oswald Ducrot/Tzvetan Todorov sciences du langage

وتعطي كريستيفا وجماعة تيل كيل، للدرس السيميائي، امتداده الأقصى، باعتباره منهجية للعلوم الانسانية، وتطبيقات سوسيو-تاريخية وأنظمة دالة. والسيميائية، هي دراسة لكلّ مظاهر الثقافة، كما لو كانت أنظمة للعلامة، اعتمادا على افتراض مظاهر الثقافة كأنظمة علامات في الواقع. والمنهج السيميائي، تركيب للدراسات الأنثروبولوجية /اللسانية /النفسية /الاجتماعية.¹

وتحت عنوان السيميائيات وعلم الاجتماع قسّم فيصل الأحمر عملية بحث علم الاجتماع إلى مرحلتين مهمتين «الأولى هي: "المرحلة التجريبية، وتقود الباحث فيها مجموعة من الأفكار المستقاة من النظرية الاجتماعية أو من الواقع المعاش للوصول إلى مجموعة من الحقائق، وهذه الأفكار أشبه بالوصلة للسائر في الصحراء، أو أشبه بالدفة في السفينة"، ونفهم من هذه المرحلة أنّ الباحث فيها يكون مجرد ناقل للأحداث والوقائع، وهنا لا تتدخل ذاتيته على الإطلاق، لتأتي المرحلة الثانية، وهي مرحلة التفسير فيها يقارن الباحث بين هذه الحقائق الاجتماعية في ضوء النظريات السائدة، ويحاول أن يفهم مغزى هذه الحقائق"، ففي هذه المرحلة الثانية يكون الباحث أكثر إعمالا لذهنه وفكره، حيث تتدخل عمليات التفسير والتحليل والاستنباط والمقارنة، كلّ هذا من أجل الوصول إلى نتائج أكثر علمية، وهنا نستنتج أنّ عملية البحث الاجتماعي ليست عشوائية أبدا»². وعملية التفسير والتحليل والاستنباط هي عملية سيميائية بامتياز.

¹ ينظر: سعيد علوش، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1985، ص118.

² فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ط267، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2010، ص267.

مفهوم المَعْلَم:

إذا كان مجال عمل الدرس السيميائي هو العلامات. فواجب علينا تحديد مفهوم العلامة.

جاء في القاموس الجديد للطلّاب، في مادة مَعْلَم: المَعْلَم هو العلامة. ما يستدلّ به على الطريق.¹

وجاء في معجم المعاني الجامع، في معنى معالم: مَعَالِم: (اسم) جمع مَعْلَم . فمعالم المكان: ما يُستدلُّ بها عليه من آثارٍ ونحوها معالمُ أثرية، ومعالمُ الطريق: العلامات التي تدلُّ عليها، ومعالمُ المدينة: الأبنية ونحوها التي تشتهر بها وتميّزها عن غيرها من المدن، ومعالمُ تاريخية: أحداث تمثل نقطة تحوّل في التاريخ. ونقول: زارَ معالمَ المَدِينَةِ : أيّ مآثِرَها. والمَعْلَمُ : العلامة.

وهذا ما يحتّم علينا التطرق إلى مفهوم المعالم الأثرية.

المعالم الأثرية:

المعالم الأثرية تحدّد وتُصنّف عن طريق عملية بحث وفق منهجية علمية، عرفت بعلم الآثار. ممّا يحتّم علينا تعريف علم الآثار.

العديد من المعاجم تعود بنا في ثنايا البحث عن اصل كلمة علم الآثار إلى الكلمة اليونانية Arkhaios التي تترجم إلى العربية بكلمة: أركيولوجيا/ أرخيولوجيا المنقولة من

¹ مجموعة مؤلفين، القاموس الجديد للطلّاب، ط7، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1991، ص1107.

المصطلح الفرنسي Archéologie المركّب من لفظة: Logie وتعني: علم / خطاب / بحث، ولفظة Arché تعني البدء / القِدَم.¹ وعند العرب نجد "علم القيافة أو متابعة الأثر، والأثر هو ما بقي من رسم الشيء"، و عند لويس معروف في المنجد في اللغة والأدب "علم الآثار هو معرفة بقايا القوم من أبنية ومحنطات ونقود وما شاكل ..."

مفهوم التراث:

عرّف اللّغويون كلمة تراث بقولهم : «الوراثّة والإرث انتقال قنية إليك عن غيرك من غير عقد، ولا ما يجري مجرى العقد، وسمّي بذلك المنقل عن الميّت فيقال للقنية الموروثة ميراث، وإرث وتراث أصله وراث، فقلّبت الواو ألف وتاء قال : وتاكلون التّراث أكلا لمّا. وقال رسول الله ﷺ : اثبتوا على مشاعركم فإنكم على إرث أبيكم . أي أصله وبقيته ... وقال لكلّ من حصل له شيء من غير تعب قد ورث كذا»².

والتراث في معناه الاصطلاحي العام: «هو كل ما أثمره العقل البشري في مختلف مناحي الحياة الفكرية والمادية والمعنوية، وذلك من خلال التفاعل والحراك الفكري والاجتماعي، وصار ميراثاً للأبناء من الآباء، سواء أكان ميراثاً عمرانياً ومادياً، أم كان لغةً أو فكرياً، أو عادات وتقاليد، أو تجارب وخبرات، أو علاقات اجتماعية..... إلخ»³.

وعلى ذلك فالتراث أنواع شتى: فثمة تراث فكري، وتراث معماري، وتراث شعبي، وتراث فني.... إلخ.

¹ ينظر: علي حسن، الموجز في علم الآثار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1993، ص12.

² الراغب الاصفهاني / معجم مفردات القرآن

³ إسلام مصطفى محمد، مدخل إلى التراث العربي الاسلامي

نقل عاصم محمد رزق في كتابه "علم الآثار بين النظرية والتطبيق" عن عبد العزيز صالح في كتابه "الرحلات والكشوف الأثرية للعصر الحديث في شبه الجزيرة العربية" تعريفا شاملا لعلم الآثار بأنه: «هو علم التحري عن الأصول المادية لحضارة الانسان، ومن ثمّ فهو علم الوفاء للقادم والحرص على تتبع مسيرة التطور التي سلكتها الحضارة البشرية في عصورها الماضية عن طريق استقراء الشواهد المادية من تراث هذه العصور واستخلاص القيم الثقافية والعلمية والجمالية من كلّ ما أبدعته قرائح الانسان واحاسيسه وعلومه، ومن كلّ ما شكّلته يده وآلاته تجسيدا لمعتقداته وفنونه في مختلف مناحيها الثابتة والمنقولة. وهو كذلك العلم الذي يدرس الآثار لذاتها وخلفياتها لأنّها في مفهومه لبست أطوالا وعروضا ورسوما وأشكالا وبساطة وجمالا فقط، وإنّما هي وقائع ملموسة تتحدث بلسان أهلها وزمانها إيجابا وسلبا، ولا تنفصل عن كيانهم في الزمان والمكان والتأمل والخيال حتّى ولو كانت آثارا ساذجة غير مكتوبة»¹.

ووصف علم الآثار واستنباط المعارف منها، ومن هنا وصف علم الآثار بأنّه العلم الذي يهتم كلّ إنسان لأنّ هدفه المباشر - إذا قورن بالعلوم الطبيعية الأخرى - هو البحث في حضارة هذا الانسان والوقوف على خصائصها ومميزاتها وصولا إلى المعرفة الحقيقية لهذه الحضارة².

يعاني علم الآثار من مشكلات نظرية وتطبيقية عدّة، ربّما يكون من أهمها الآراء الوطنية والآراء السياسية، لأنّهما ظاهرتان تلعبان دورا هاما وبارزا فيما تصل إليه الدراسات الاقليمية .. نجد أنّ المنافسة بين الباحثين من الآثاريين الوطنيين تسير في كثير

¹ عاصم محمد رزق، علم الآثار بين النظرية والتطبيق، دط، مكتبة مدلولي، 1996، ص12.

² عاصم محمد رزق، علم الآثار بين النظرية والتطبيق، دط، مكتبة مدلولي، 1996، ص13.

من الأحيان وفق بعض النزعات العاطفية الإقليمية أكثر من سيرها وفق منهج الدقة العلمية الواجبة .. هذه النزعات المحلية قد أدّت - ولا سيما بالنسبة للآثار الإسلامية - إلى غياب النظرة الشمولية لهذه الآثار التي تندرج تحت لواء واحد، وتميز بخصائص فنية عامة تجمع بينها، وإن اختلفت في بعض تفاصيلها¹.

علم الآثار يحتاج إلى كثير من العلوم المساعدة التي تهيء له كثيرا من أسباب الوصول إليه من نتائج علمية أثرية. كعلم التاريخ، وعلم النقوش والكتابات، وعلم الأنثروبولوجيا، علم الجيولوجيا والجغرافيا، علم فنون الرسم والنحت والتشكيل، علم النقود والأختام والأوزان، علم التصوير (نقل الطبيعة الأثرية كما هي دون تبديل أو تحريف)، ولا يستقيم البحث فيعلم الآثار دون مناهج تلبي الغرض من الدراسة.

وتجدر الإشارة إلى أهمية الدراسات الأنثروبولوجية والإثنولوجية؛ هذان العلمان هما، مثل التاريخ، من أشد الاختصاصات المساعدة التصاقاً بعلم الآثار. فالأول يبحث في التطور التاريخي الطبيعي للإنسان، والثاني يبحث في ثقافته وعاداته وتقاليده، ولذلك يرى بعض العلماء أنهما بحثان تاريخيان وبالتالي أثريان. في إبراز ثقافة المجتمعات وخصائصها الاجتماعية وطبائعها الانسانية، بمساعدة المنهج السيميائي.

¹ عاصم محمد رزق، علم الآثار بين النظرية والتطبيق، دط، مكتبة مدلولي، 1996، ص24.